مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كورنثوس ٤:٩-١٦)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ قد أبرزَنا نحنُ الرسلَ آخِرِي الناسِ كأنَّنا مجعولونَ للموتِ. لأنَّنا قد صِرنا مشهداً للعالمِ والملائكةِ والبشرِ* نحنُ جهَّالٌ من أجلِ المسيحِ أمَّا أنتم فحكماءُ في المسيحِ. نحنُ ضُعفاءُ وأنتم أقوياءُ. أنتم مُكرَّمون ونحنُ مُهانون* وإلى هذهِ الساعةِ نحنُ نجوعُ ونعطَشُ ونُعْرى ونُلطَمُ ولا قرارَ لنا* ونتعبُ عامِلين. نُشتمُ فنُبارِكُ. نُضطَهدُ فنحتَمِلُ* يُشنَّعُ علينا فنتضرَّعُ. قد صِرنا كأقذارِ العالمِ وكأوساخٍ يستخبثُها الجميعُ إلى الآن* ولستُ لأُخجِلَكم أكتبُ هذا وإنَّما أعِظُكم كأولادي الأحبَّاءِ* لأنَّهُ ولو كانَ لكم ربوةٌ من المُرشدينَ في المسيحِ ليسَ لكم آباءٌ كثيرون. لأنّي أنا ولدتُكم في المسيحِ يسوعَ بالإنجيل* فأطلبُ إليكم أن تكونوا مقتَدينَ بي.

القديس قزما الإيتولي

يُعتبر القديس قزما الإيتولي أحد أبرز الوجوه النسكيّة والرعويّة في التاريخ الحديث لبلاد اليونان، إذ أسفرت الحركة التبشيريّة التي قام بها عن يقظة روحيّة ومعرفيّة بعيدة الأثر. عاش القديس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في زمن كانت فيه بلاد اليونان الحاليّة، على شاكلة بلادنا، خاضعةً للحكم العثماني. عُرف عن قزما ولعه بطلب العلم. ويُحكى أنّه قصد مدرسة دير فاتوبيذي، في الجبل المقدّس (آثوس)، لدراسة اللغة والأدب، ثم تلقى دروساً في المنطق وتشرّب، خلال إقامته هناك، مسلك النسك والرياضات الروحيّة. وحين اضطرت المدرسة إلى إقفال أبوابها قصد قزما دير فيلوثايو، حيث اعتنق الرهبنة، وبعدها سيم كاهناً، تلبيةً لحاجات الدير.

بيد أنّ ما كان يصطخب في نفس القديس كان همّ البشر العاديين القابعين في الجهل، الذين كان يحس بمسؤولية خاصة حيالهم. فما كان منه إلاّ أن استأذن آباء الدير بالعودة إلى العالم والانصراف إلى التبشير. قصد القسطنطينية أولاً، حيث التقى شقيقه المعلّم خريسانثوس، الذي لقّنه هناك بعض أصول الخطابة اليونانيّة، حتى يتمكّن من وعظ البشر ومخاطبتهم بلياقة. ولقد أفصح القديس عن نواياه أمام بعض من الأساقفة والمعلّمين في القسطنطينية، فباركوا مسعاه، حتى أنّه حظي من بطريرك المدينة سيرافيم، برسالة خطيّة تجيز له ممارسة التبشير.

لا بدّ من التوقف قليلاً هنا، عند ظاهرة هذا الراهب الذي يغادر ديره لينطلق سائحاً في العالم، يعظ الناس الواقعين في الجهل العلميّ والروحيّ المدقع، فيعلّمهم ويبشّرهم ويحضّهم على التوبة. من المعروف أنّ مثل هذا النموذج غير شائع كثيراً في أوساط الرهبنة الأرثوذكسية. فهذه طابعها نسكيّ. ويعرف الآباء، بتراكم الخبرة، أنّ الانصراف إلى حياة رهبنيّة أصيلة لا يستقيم، على الغالب، ما لم يعزف المرء، لا عن مقتنياته فحسب، بل عن محيطه وعائلته وصحبه وكلّ ما يربطه بالعالم. حتى أنّ القديس قزما الإيتولي يشير في بعض عظاته، إلى هذه الحقيقة، مؤكّداً أنّ ما قام، هو، به لا يشكّل القاعدة. غير أنّ الرهبنة الأرثوذكسية لم تنظر يوماً إلى هذه القاعدة بوصفها قانوناً

العدد ٢٠٠٦/٣٤

الأحد ٢٠ آب

تذكار القديس صموئيل النبي

اللحن الأول

إنجيل السَحَرْ العاشر

الإنجيل

(متى ١٧: ١٤-٢٣)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ فجثا لهُ وقال يا ربُّ ارحمِ ابني فإنَّهُ يُعذَّبُ في رؤوسِ الأهِلَّةِ ويتألَّمِ شديداً لأنَّهُ يقعُ كثيراً في النار وكثيراً في الماءِ* وقد قدَّمْتُهُ لتلاميذِك فلم يستطيعوا أن يَشْفوهُ* فأجاب يسوع وقال: أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمنِ الأعوجُ إلى متى أكونُ معكم. حتى متى أحتملُكم. هلمَّ بهِ إليَّ إلى ههنا* وانتهرهُ يسوعُ فخرجَ منهُ الشيطانُ وشُفي الغلامُ من تلكَ الساعة* حينئذٍ دنا التلاميذُ إلى يسوعَ على انفرادٍ وقالوا لماذا لم نستطعْ نحن أن نُخْرِجَهُ* فقال لهم يسوع لِعَدَمِ إيمانِكم. فإنّي الحقَّ أقولُ لكم: لو كانَ لكم إيمانٌ مثلَ حبَّةِ الخردلِ لكنتم تقولون لهذا الجبلِ انتقِلْ من ههنا إلى هناك فينتقِلُ ولا يتعذَّرُ عليكم شيءٌ* وهذا الجِنس لا يخرجُ إلاَّ بالصلاة والصوم* وإذ كانوا يتردَّدون في الجليل قال لهم يسوع إنَّ ابنَ البشر مزمعٌ أن يُسلَّمَ إلى أيدي الناس* فيقتلونهُ وفي اليوم الثالث يقوم.

لا يُسمح بتخطّيه. فكبار شيوخ الأديرة غالباً ما يغادرونها لمدّة قد تطول أو تقصر، لا لتفقّد أولادهم الروحيين في العالم فحسب، بل لطلب «الخراف الضالّة» التي لم يتسنَّ لها التعرّف إلى الأديرة. وثمّة أديرة أرثوذكسية اليوم، لا تبخل بعدد من رهبانها وراهباتها لدعم حركة التبشير في بعض الدول الإفريقية، أو في دول أخرى مثل ألبانيا، شهدت فترات طويلة من تحكّم الإلحاد الإيديولوجيّ في مقاليد السلطة. ويُستدل من سيرة القديس قزما الإيتولي على أنّ حياة التوحّد التي يُقبل عليها الرهبان، إن هي، في نهاية المطاف، إلاّ موهبة من المواهب الكنسيّة الكثيرة التي يمنّ بها الروح القدس على المؤمنين لبنيان الجسد ككلّ. فإذا ما اقتضت الحاجة الكنسيّة الرعويّة أن يُغلّب المرء في ذاته مواهب أخرى، كالتعليم والتبشير، في سبيل أن يستقيم بنيان الكنيسة، فلا مضرّة من ذلك، شرط أن يحوز مثل هذا المسعى قبول الإخوة ورضاهم، وذلك في بركات الروح الذي يُرشد المؤمنين إلى كلّ حقّ، على تنوّع الأمكنة والأزمنة واختلاف الطرق.

لقد اختبر القديس قزما الإيتولي، في قرارة نفسه، شيئاً من هذا، أي أنّ ضرورة بنيان الكنيسة، ولا سيّما الاهتمام بالقابعين في ظلمات الجهل، إنّما تحتّم عليه الانصراف إليهم، وذلك على حساب دعوته الرهبنيّة إلى التوحّد. فانصرف إلى التبشير بملكوت الله في كنائس القسطنطينية أولاً. ثم انطلق من هناك إلى عدد من المدن والجزر، ليعود بعدها إلى الجبل المقدّس، حيث أقبل على دراسة مصنّفات آباء الكنيسة. لكنّه ما لبث أن ارتحل ثانيةً، مبشّراً بالإنجيل في سالونيك وقرى مقدونية وألبانيا. فذاع صيته وراح المسيحيون يتجمعون في كلّ مدينة أو قرية أو جزيرة يزورها، بغية الإصغاء إليه، حتى أنّه غالباً ما كان يضطر إلى الوعظ في الخلاء لأنّ الكنائس كانت تضيق بالمؤمنين.

لقد جنح القديس قزما إلى السهولة في وعظه، فكان يتخيّر الكلمات والمعاني القريبة المنال، التي لا تعصى على عقول بسطاء القوم ومداركهم. وخصّص جزءاً كبيراً من وقته وعمله لتأسيس المدارس، لا في المدن فحسب، بل في القرى أيضاً، اقتناعاً منه بأنّ الجهل آفة الآفات، وبأنّ المعرفة الحقيقية المستندة إلى الكتاب المقدّس ومؤلّفات المعلّمين الكنسيين، من شأنها أن تثبّت الإيمان وتعمّقه. ولقد نُقل عنه قوله إنّ «المدرسة هي التي تفتح الكنائس والأديرة». ففي المدرسة «يتعلّم الصبية من هو الله، ومن هم الملائكة، ومن هم الشياطين، وما الجنّة والنار، والفضيلة والرذيلة، والنفس والجسد».

حبا الله القديس قزما موهبة صنع العجائب والأشفية، والقدرة على رؤية المستقبلات. وقد حفظ لنا التراث بعضاً من نبوءاته التي تحققّت بعد موته بزمن يسير أو طويل، رغم أنّ بعضها الآخر أتى بلغة رمزيّة يصعب تفكيكها. وقد عمّت أخبار قداسته البرّ اليوناني والجزر، حتى أنّ المسلمين كانوا ينظرون إليه بوصفه ولياً صالحاً، لا بسبب العجائب التي كان الله يتمّها بواسطته فحسب، بل أيضاً بسبب عظاته الملهمة وما كان ينبعث من شخصيّته من الاحترام والودّ.

غالباً ما كان القديس قزما يشير في عظاته إلى أنّ يسوع المسيح نفسه هو من دعاه إلى التبشير، وإنّ يوماً سيأتي يبذل فيه، هو، دمه حبّاً بالمسيح. ولقد أُعطي القديس أن يكلّل سيرة حياته بشهادة الدم إذ قضى نحبه بأمر من الوالي العثماني كورت باشا، الذي أوعز إلى بعض رجاله بقتل القديس. فأوثقوه إلى

تأمل

« نحن جهَّال من أجل المسيح...».

نحن بالفعل جهّال أي مجانين من أجل المسيح لأن الذي يتلقى الأذى ولا يتذمّر ولا يحزن يبدو بالنسبة لغير المؤمنين وكأنه جاهل، ضعيف، حقير. لا يقتصر كلام الرسول بولس هذا على أهل كورنثوس بل عمّمه قائلاً: «صرنا كأقذار العالم وكأوساخ يستخبِثُها الجميعُ إلى الآن».

هذه الكلمات صادرة عن إنسان مثقَل. لكنه لا يتذمّر بل يريد أن يدهش الآخرين. كان يمكن له أن يوبّخهم على أشياء عديدة ومع ذلك يسالمهم لأن المسيح يوصي بتحمّل الشتائم بوداعة وبأن نعيش الوصايا المسيحيّة، حتى يجعل الآخرين يخجلون من أنفسهم. لأن ذلك يحصل لا عن طريق التوبيخ المباشر بل عن طريق الصمت.

فلا نطلبنّ إذاً الإكرام والمديح من الآخرين لأننا إذا فعلنا ذلك ابتعدنا عن الله، لأننا لا نعود نكتفي برضاه وكأننا نعيّره، بل نفتّش عن رضى الناس. إن الذين يسابقون في الميدان الصغير يتطلّعون إلى أبعد غير مكتفين برضى الناس الذين أمامهم، كذلك الذين شجرة وشنقوه ورموا جثّته في أحد الأنهار المحاذية. ويُحكى أنّ بعض اليهود أوغروا، بوشاياتهم، صدر الحاكم العثماني ضد القديس، حتى أنّ بعضهم يزعم أنّهم رشوا الباشا بمبلغ كبير من المال ليطلق حكم الإعدام. وكان هذا في ٢٤ آب ١٧٧٩. ولقد أعلنت البطريركية المسكونية، في القسطنطينية، قداسة قزما، رسمياً، في ٢٠ نيسان ١٩٦١.

طقوس المعمودية

+ مباركة هي مملكة الآب والإبن والروح القدس: مع طقس رفض الشيطان وقبول المسيح تنتهي طقوس التهيئة للمعمودية وتبدأ خدمة المعمودية المقدسة مع رسم الكاهن بالإنجيل الشريف علامة الصليب المقدس فوق جرن المعمودية وإعلانه «مباركة هي مملكة الآب والإبن والروح القدس الآن وكل أوان...». بهذا الإعلان العقائدي تُقر الكنيسة بإيمانها بإله واحد في ثلاثة أقانيم. تعلن إيمانها بالله الآب والله الإبن والله الروح القدس، أي أن الآب والإبن والروح القدس هم ثلاثة أقانيم، أشخاص، لديهم نفس الألوهة أي نفس الجوهر، وذلك عبر القول «مملكة» وليس «ممالك». مملكة الآب هي نفسها مملكة الإبن ومملكة الروح القدس لأن الثلاثة هم واحد في الجوهر.

فعل البركة يعني فعل المحبة الهادفة المشدودة إلى من تحب. أن تبارك يعني أن تقبل بمحبة وأن تتجه باتجاه ما قبلت وأحببت. في الإعلان «مباركة هي مملكة الآب...» نعلن ان الملكوت هو هدفنا ومبتغانا ونسعى إليه سعي الحبيب. لا يعني هذا الإعلان اننا نحن نبارك الملكوت ونقدسه، بل نعلن انه مبارك وهو مشتهانا. بالتالي فإن هذا الإعلان هو دعوة للمستعد للإستنارة ولنا لأن ندخل إلى ملكوت الله المثلّث الأقانيم والمشاركة في الحياة الإلهية. وهذا هو هدف المعمودية، أن تتخلى عن كل شيء في هذه الدنيا لتكون ابناً للملكوت. المعمودية تفتح لك أبواب الملكوت وتسمح لك أن تتذوقه منذ الآن في الكنيسة ضمن الجماعة الإفخارستية، أي عبر إشتراكك الفعلي الصادق بجسد الرب ودمه الكريمين مع سائر أعضاء الكنيسة.

+تقديس المياه: بعد سلسلة من الطلبات يتلو الكاهن صلاة تقديس المياه، وفيها يطلب من الله: «احضر الآن بحلول روح قدسك وقدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الفداء وبركة الأردن واجعله ينبوعاً لعدم الفساد، موهبة للتقديس، فداء للخطايا، إكسيراً (دواءً) للأمراض، مبيداً للشياطين... لكن أنت يا سيد الكل أظهرْ هذا الماء ماء الفداء، ماء التقديس، تطهيراً للجسد والروح، حلاً للعقالات، مغفرة للزلاّت، استنارة للنفوس، حميماً لإعادة الولادة، تجديداً للروح، نعمة للتبني، سربالاً لعدم الفساد، ينبوعاً للحياة...».

المياه من أقدم الرموز الدينية وتحمل في طياتها ثلاثة أبعاد. فالمياه، أولاً، هي رمز الحياة والعيش، هكذا أرادها الله عند الخلق. لا وجود للحياة دون ماء. لكن مع السقوط صارت المياه أيضاً رمزاً للدمار والموت كما في أيام نوح والطوفان. إذاً الماء هو مبدأ الحياة لأنه قوة تعطي الحياة، ومبدأ الموت لأنه قوة تدمّر. أما البُعد الثالث لهذا الرمز فهو يكمن في ان الماء مبدأ تطهير ونظافة، أي مبدأ تجدّد وتجديد، لأنه يغسل ويزيل الأوساخ ويُعيد للأرض نقاوتها الأصلية (الأب ألكسندر شميمان). وكأننا بالمياه تتجمع قصة الخلق والسقوط والخلاص معاً، أي الحياة والموت والقيامة. وهذا هو سر المعمودية، ان المعمَّد عندما ينزل في مياه جرن المعمودية يموت الإنسان العتيق فيه

يجاهدون أمام الله لا يكتفون بمديح الناس بل يسعون وراء مديح الرب أولاً.

كل ذلك يقلب الأمور كلّها، يزعزع المسكونة: أي عندما نفعل كلّ شيء متطلّعين إلى الناس دون أن نتطلّع إلى الله وإكرامه نسعى وراء مديح الآخرين ونزدري بالله في الأوقات الصعبة ونخاف الناس مع العلم أن هؤلاء سيقفون معنا أمام المنبر الرهيب ولن يفيدونا، بينما الله الذي نزدري به الآن هو الذي سوف يحاكمنا. نحن نعلم ذلك ومع هذا نستحي أمام البشر، الأمر الذي هو الخطيئة الكبرى. عندما يرى الإنسان أخاه يستحي من الزنى، يغلب الحياءُ من الناس على تسلّط الزنى. بينما نزني أمام الله ولا نستحي منه بل ونعمل أمام الله أشياء أردأ وأرهب من ذلك! ألا يكفي هذا الأمر ليجلب علينا الصاعقة من السماء؟

ولماذا أتكلم فقط عن الزنى والدعارة؟ نحن في كلّ الأمور الصغيرة والكبيرة نخاف من الناس ولا نخاف من الله. لذلك نهرب من الخيرات الصالحة لأن الكثيرين لا يعتبرونها كذلك. لا نفحص عن حقيقة الأمور بل نتطلّع أولاً إلى رأي الآخرين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ويقوم إنساناً جديداً مُخلّصاً مع الرب يسوع ليحيا حياة جديدة وكأنه خُلق من جديد.

الكاهن يصلّي على المياه ليطلب من الله أن تعود هذه المياه لما كان يقصد منها الله عند الخلق، أي أن تكون مصدراً للحياة وليس مصدراً للموت. أن يعيدها لحالة الفردوس، أي ما قبل السقوط. وأن يسكب فيها نِعم القيامة التي منحنا إياها الرب بموته وقيامته، أي نعمة التطهير والتجدد. أن تكون هذه المياه فعلاً غاسلة لكل وسخ فينا وتُعيدنا إلى نقاوتنا الإصلية.

رسالة دعاء وتضامن

في ما يلي نص الرسالة التي أرسلها قداسة البطريرك المسكوني برثلماوس الأول لسيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس:

سيادة متروبوليت بيروت، الأخ الحبيب في الروح القدس وشريكنا في الخدمة، كيريوس الياس، نعمة لكم وسلام من الله.

بحزن عميق نتتبّع المأساة التي تتعرّض لها رعيّتكم المحبوبة وكلّ شعب لبنان عامة وشعوب المنطقة المحيطة، الذين يتألّمون بسبب الاشتباكات العسكريّة وبسبب عدم قدرة رؤساء البلدان المتحاربة، ورؤساء العالم بالإجمال، على إيجاد حلّ سلميّ للعيش المشترك والتعاون بين إخواننا هؤلاء.

يؤسفنا كثيراً ما يحصل خصوصاً عندما نعرف أنّ التعاون والحوار، وبغضّ النظر عن المصالح العنصريّة والدينيّة والإثنيّة والسياسيّة، هما أنفع من الحروب ومحاولات البعض الإنتصار على البعض الآخر.

إذ نحن قلقون ومعانون مع قداستكم ومع كلّ المؤمنين وكلّ الشعب اللبناني، نعبّر لكم عن عمق تعاطف البطريركيّة المسكونيّة وتعاطف حقارتنا شخصياً وألمنا وحزننا، ونظهر قلقنا الجدّي، كرئيس روحيّ، بسبب فقدان الأبرياء والضحايا الذين لا علاقة لهم بكلّ ذلك، وبسبب هجرة الكثيرين وتغرّبهم، وأيضاً بسبب نتائج العمليات العسكرية التي لا تخفى على أحد والتي تؤذي عامة الناس، إن في المناطق المعتدّى عليها أو المناطق المتعدّية على حدّ سواء، والتي تتغذّى بلا شك من أفكار من الماضي تقوم على الاعتقاد أن بإمكان السيطرة العسكريّة أن تحلّ مشاكل الإنسان أياً تكن.

فإذ نأمل إذاً أن تدير أمور أوضاعنا الحالية الروح الإنسانية التي بدونها، كما تُظهر الوقائع، تحصل العمليات الحربية الظالمة، نعبّر لكم مجدداً عن مشاعرنا الأخويّة وتضامن البطريركيّة المسكونيّة مع ما تقاسونه ومع شعبكم المتألّم والمكتوي، ونصلّي من صميم قلبنا أن يزرع الله الصلاح في قلوب جميع الرؤساء والشعوب حتى يجدوا حلاً للوضع الراهن، وأن يتوصّلوا إليه بدون منازعات وببحث دؤوب، كما نصلّي إلى الله أن يرحم شعبكم العزيز على قلبنا، والذي نباركه من عمق القلب، ونطلب أن تنقضي هذه المصاعب التي يعانيها بسرعة ويعمّ السلام واليسر على الدوام.

بمثل هذه المشاعر وبمحبّة عميقة نقف إلى جانبكم في ساعات المحنة هذه التي تفوق قدرة الإنسان، ونعانق قداستكم أخوياً، ونستنزل عليكم وعلى الجميع نعمة رئيس السلام ومانحه، ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، ورحمته التي لا تحد.

بطريرك القسطنطينية
الأخ المحب في المسيح
برثلماوس

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb